أولا / استدعاء الأحداث والوقائع التاريخية:-

استدعى الشعراء العرب الواقعة التاريخية، وتعاملوا معها واستلهموا مضامينها في النص الشعري، سواء بالإشارة أو بالرمز، أو عن طريق الكناية لما تمتلكه من حضور في ذهنية المتلقي، فالإشارة إليها تنقل المتلقي إلى أحداثها فضلا عن الأسلوب الفني الذي تصاغ به تلك الأحداث والوقائع، فالشاعر حين يستدعي هذه الوقائع لا يسرد لنا الأخبار وتفاصيل هذه الحادثة كما وقعت، بل يفترض به أن يصوغها صياغة فنية، وفق أسلوب إبداعي ورؤية جديدة، تضفي عليها الكثير من الحيوية والتجديد للتراث، ثم يربطها بالعصر الذي يعيشه الشاعر، لتكون وسيلته التي يستطيع بها التعبير عن موقفه من حالة ما، أو من واقعة ما في عصره.

ويتخير أبو تمام الوقائع والمعارك المشهورة في التاريخ، فيوظفها في مدائحه، لا سيما حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها في الجاهلية والإسلام، وقد كان يعرف كيف يحول التاريخ شعرا، على شاكلة قوله في إحدى قصائده مادحا " أبا دلف العجلي " [1]:

إذا افتَخَرَتْ يَوْمًا تَمِيمُ بِقَوْسِهَا ... وزَادَتْ عَلَى مَا وَطَّدَتْ مِن مَنَاقِبِ
فَأَنتُمْ بِذِي قَارٍ أَمَالَتْ سُيُوفُكُم ... عُرُوشَ الذينَ استَرْهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِ [2]

(فكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جدب شديد، فأرادت الرعي في أرض العراق فكاتب والي الحيرة كسرى، أن يأذن لهم بالرعي، فاشترط أن يقدموا رهائن منهم ولما بلغ ذلك رئيسهم حاجب بن زرارة قال: ليس معي إلا قوسي فاسترهنوها منه، ووفى لهم بما وافقهم عليه، فصار ذلك معدودا في مناقب تميم، وإلى ذلك أشار أبوتمام في هذه القصيدة) [3]. فإن كانت قبيلة تميم تفتخر بما فعله حاجب بن زرارة فإن ربيعة هزمت في ذي قار من رهن القوس عندهم، وفي هذا معنى دقيق نفذ إليه أبوتمام، علاوة على المدح الجديد ذي النزعة العربية في زمن كاد فيه العرب يفقدون سلطانهم.

ويستوقف أبوتمام من تاريخ العرب يوم الكلاب، ذاكرا من شارك فيه، في شكره محمد بن الهيثم بن شبانة، إذ لو استطاع أن يستعين بكل البشر لشكر هذا الممدوح لفعل ذلك. فيقول:

---

[1] أبو دلف العجلي: القاسم بن عبسى بن إدريس، ولي دمشق أيام المعتصم، وكان من الأجواد الممدوحين. ينظر تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق عمر غرامة العمروري (دط 1995م) دار الفكر، بيروت، ص 49، 130.

[2] ديوان ابوتمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام (د ط. د ت) دارالمعارف، مصر، ص /207، 208.

[3] ينظرالعقد الفريد، ابن عبدربه، شرح أحمد أمين (د ط 1956م) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص 2 , ص 20

وَلَو أَنّي استَطَعتُ لَقُلتُ عَنّي بِشُكرِكَ مَن مَشى فَوقَ التُرابِ
وَجِئتُكَ في قُطاعَةٍ قَد أَطافَت بِرُكنَي عامِرٍ وَبَني حِجابِ
وَلا استَنجَدتُ حَنظَلَةً وَعَمراً وَلَم أَعدِل بِسَعدٍ وَالرِبابِ
وَلا استَوقَفتُ مِن قَيسٍ نِزاراً بَني بَدرٍ وَصَيدَ بَني كِلابِ
وَلا احتَفَقَت رَبيعَةُ لي جَميعاً بِأَيّامٍ كَأَيّامِ الكِلابِ
فَأَشفي مِن صَميمِ الشَكوِ نَفسي تَرَكتُ الشَكوَ أَثقَلَ لِلقَلبِ (1)

والشاعر يقف هنا من هذا اليوم موقف المؤرخ والمبدع، إذ لا يكتفي بمجرد الإشارة إلى الواقعة فقط، بل يرصد أطراف هذا اليوم، فيعرض في بيان عسكري طبيعة القوات المتحاربة مذكرا بذلك الماضي، وتفاصيل وقائعه، وكأنه شاهد عيان على أحداث ذلك اليوم، مما يبين قدرة الشاعر على تطويع المادة التاريخية لخدمة نصه، وغرضه الشعري .

ونرى الشاعر المتنبي أيضا يوظف أكثر من حادثة تاريخية في قوله:

((أشمت الخلف " بالشراة (2)عداها وشفى " رب فارس " (3) من " إياد" (4)

وتولى بني البريدي بالبصرة حتى تمزقوا في البلاد)) (5)

فالمتنبي يعرض في هذه الأبيات إلى المؤامرة، التي حاكها بعض الأشخاص للإيقاع بين كافور وابن الإخشيد , فاستدعى المتنبي على إثر ذلك حوادث تاريخية ليبين أثر الخلاف والشقاق بين الجماعات قديما حيث أدى إلى شماتة أعدائهم بهم إذ بسبب التنازع تمكن أعداؤهم منهم، وفرق صفوفهم وضيع سطوتهم وهيبتهم كما كان من أمر الخوارج الذين لم يظفر بهم المهلب بن صفرة، إلا بعد أن نزغ الشيطان بينهم، فقد قاتلهم المهلب نحو ثلاثين شهرا، فلم يقدر عليهم ثم وقع الخلاف بينهم واقتتلوا، فوهنت شوكتهم وتمكن المهلب منهم، ولم ينج منهم إلا القليل. أما إياد فقد كانت يدا واحدة ثم تفرقت كلمتهم، وتشتتوا بأرض الجزيرة فهاجمهم سابور ذوالأكتاف وأفنى منهم خلقا كثيرا، فتفرقوا في البلاد. واختلفت بنو " البريدي " (6) فقتل أكبرهم أوسطهم، فما كان إلا أن هوى نجمهم وذهب ملكهم وهلكوا جميعا.

(1) ديوان أبي تمام، ج1، 287، 288.

(2) الشراة هم فرقة من الخوارج سموا بذلك لأنهم شروا أنفسهم بالقتال في سبيل الدين، والشراة من أعمال دمشق. ينظر تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق عمر بن غرامة العمروري (د ط 2003م) دار الفكر، بيروت، ص299/37.

(3) رب فارس: سابور ذو الأكتاف بن هرمز بن فرس بن بهرام بن هرمز بن سابور. ينظر تاريخ الأمم والملوك، الطبري (د ط 1407هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ص 319.

(4) إياد حي بن معد بنظر: جمهرة أنساب العرب، ابن حزم (د ط 1983م) دار الكتب العلمية، بيروت، ص 10/1.

(5) ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا (د ط. د ت) دار المعرفة، بيروت، ص 34/2.

(6) بنو البريدي: كتاب وثبوا على البصرة واستولوا عليها في خلافة المنصور، واخرجوا ابن رائق، فعظم شأنهم وكانوا اخوة ثلاثة. أبو عبد الله، وأبو سيف، وأبو الحسن. ينظر: شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام (د ط. د ت) دار المعارف، مصر، ص 23- 51.

ويلاحظ أن المتنبي استغل هذه الحادثة التاريخية، ليبين أن وجود كافور على مصر، فيه ظلم لابن الإخشيد، صاحب الحق الشرعي بدلا من كافور، الذي كان في نظر المتنبي لا يستحق شيئا إلا الإزدراء والتحقير، فضرب بهذه الحادثة مثلا على وصول بعض الناس بالحيلة والدهاء إلى مناصب ليسوا أهلا لها.

كما وظف المتنبي أحداث تاريخية أخرى في شعره، ومن ذلك استدعاؤه لأحداث من موقعة صفين، في قوله:

كُـــٌريُ يـــوُ ِجَ لَـــه لِحَيَاتَـــه   يَـلمَ ٌ ريُ يــدُحَيَاتَــهرلِجَ لَـــه[1]

وهو في هذه الأبيات يشيد بشجاعة سيف الدولة في موقف له مع الإخشيد، أراد فيه أن يحقن دماء المسلمين، (حيث طلب سيف الدولة إلى الإخشيد أن يتبارزا ومن يقتل صاحبه منهما ملك البلاد، فامتنع الإخشيد وتوجه إليه بقوله: ما رأيت أعجب منك، أأجمع مثل هذا الجيش العظيم، لأحمي به نفسي ثم أبارزك والله ما فعلت ذلك أبدا. فأعجب المتنبي بهذا الموقف، وعبر عنه بقوله لسيف الدولة، كل الملوك يريدون رجالهم ليدافعوا بهم عن أنفسهم، ويحموها ليبقوا ويسلموا، ولكنك تدافع عن جيشك وتحميه. وهذا غاية الكرم والشجاعة، وهو هنا يستدعي ما روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام: أنه بعث إلى معاوية وهما بصفين: قد فنى الناس بيني وبينك فأبرز إلي فأينا قتل صاحبــه ملك الناس فقال عمرو بن العاص لمعاوية: قد قال لك حقا وأتاك بالإنصاف. فقال معاوية لعمرو: أعلمت أن عليا برز إليه أحد فرجع سالما؟ والله لا برز إليه سواك، فحمله حتى برز لعلي، فلما تقاربا كشف عن سوئته، فتركه علي ورجع إلى أصحابه بغير قتال) [2] وقد كان في استدعاء المتنبي لهذه الحادثة، الإشادة بسيف الدولة، والتعريض بموقف الإخشيد ومن الحوادث التي استدعاها الشعراء (ما قام به الشاعر ابن حمديس لقصة الخليفة عمربن الخطاب، مع قائدة " سارية ")[3]، إذ جعل من وقائع وصايا والده النصوح بمثابة نداء الخليفة عمر بن الخطاب على المنبر، إلى القائد الذي كان في المعركة وهو بعيد عنه، ليحذره من التفاف العدو عليه، وقد استغل الشاعر طبيعة هذا النداء وأثره في سماع القائد، ووصول الصوت إليه برغم بعد االمسافة، وقد استغل كل ذلك ليوضح مدى نصح والده وتأثيره فيه برغم بعده عنه، فكان صوته في صوت عمر الذي يرن ويسمع

---

(1) ديوان المتنبي، ص 64.

(2) ينظر البداية والنهاية، ابن الأثير، تحقيق مصطفى العمرول (د ط 2005م) دار ابن رجب، المنصورة، مصر، ص/293.

(3) ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق عبدالله القاضي (ط2 1415هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط2. ص ج2 / 33.

سارية، ناصحا له بأخذ الحيطة والحذر، وكان ذلك في قصيدته التي رثى بها والده قائلا:

وَقَدْ أَوْدَعَتْنِي آرَاؤُهُ   نُجُومًا طَوَالِعُهَا هَادِيَه
سَمِعْتُ مَقَالَةَ شَيْخِي النَّصِيح   وَأَرْضَى عَن أَرْضِهِ نَائِيَه
كَأَنِّي بِأُذْنِي لَهَا صَرْخَةٌ   أَرَادَ بِهَا عمر سَارِيَه[1]

وكذلك من الوقائع التي استدعاها الشعراء ((حرب داحس والغبراء، التي دارت رحاها بين عبس وذبيان، ومن أشهر أيامها يوم " جفر الهباءة " وهو مستنقع ببلاد غطفان، قتل فيها عدد من فزارة)) [2] ويستدعي الشاعر الأعمى التطيلي هذه الأيام والوقائع، في قصيدة رثائية مليئة بالأحداث والوقائع التاريخية، استدعاها الشاعر لغرض التأسي بها، والتخفيف من عظم مصيبته، ومنها قوله في احدى قصائده:

وَمَالَ عَلَى عَبْسٍ وَذُبْيَانَ مَيْتَةٍ   فَسَوَّى بِمَجْنِي عَلَيْهِ وَجَانِي
فَعَوَّجَا عَلَى جَفْرِ الْهَبَاءَةِ عَوْجَةً   لِضَيْعَةِ أَعْلاَقٍ هُنَالِكَ ثَمَانِي
دِمَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا التِّلاَعُ بِمِلْئِهَا   وَلاَ نَدَّ إِلاَّ أَنْ جَرَى فَرَسَانِ
وَأَيَّامَ حَرْبٍ لاَ يُنَادَى وَلِيدُهَا   أَهَلَّ بِهَا فِي الْحَيِّ يَوْمُ رِهَانِ
فَبَاتَ الرَّبِيعُ وَالْكِلاَبُ قَهْرُهُ   وَلاَ مِثْلَ مَوْدُودٍ مِنْ وَرَاءِ عُمَانِ [3]

والقصيدة طويلة و تغص بالأحداث والشخصيات التاريخية، وقد حاول الشاعر استدعاء بعض تلك الحوادث الجسام التي حدثت في الجاهلية، ربما لأخذ العبر منها والتخفيف من حدة المصاب الذي أصيبوا به بفقد المرثي، فوجد الشاعر في هذه الأحداث عزاءا لأهل المرثي ولنفسه.

ومن القصص والحوادث التي لاقت حضورا في أشعار الشعراء، ((قصة الحلة المسمومة، التي بعث بها قيصر الروم إلى امرئ القيس، وهي حلة مسمومة منسوجة من بالذهب، ولما لبسها الشاعر تسمم جلده وتقرح جسمه وتساقط لحمه حتى سمي بذي القروح)) [4] وقد استلهم الشاعر ابن شكيل هذه القصة في قصيدة طويلة، منها قوله:

---

(1) ديوان ابن حمديس، ص 254.

(2) تفاصيل حرب داحس والغبراء في العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (د ط 1999م) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج6، ص 17.

(3) ديوان الأعمى التطيلي، ص 226، 227.

(4) الأغاني، أبوالفرج الأصفهاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر (دط. د ت) دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ج9، ص 97.

صَدَفِيَّةٌ كَنَدِيَّةٌ تَرْعَى المُنَى   فَرُبَمَا أَكَنَتْ مِرَارَ سُمُومِي
دُفِنَتْ بِأَنْقِرَةٍ مَعَ الضِّلِّيلِ [1]   فَاسْتَخْرَجْتُهَا مِنْ قَبْرِهِ المَسْمُومِ [2]

ولم يقتصر استدعاء الشعراء لأحداث ووقائع العصر الجاهلي، بل تجاوزوا ذلك إلى استدعاء الوقائع والأحداث الإسلامية، التي لها تأثير واضح في استخلاص العبر، واستنهاض الهمم وشحذ العزائم، فضلا عن رسوخها في ذاكرة المتلقي لاعتزازه بها من الجانب الديني والعربي، ومن تلك الوقائع معركة " بدر " التي استلهمها الشاعر أبو العباس الجراوي، والتي وظفها في سياق يعلل فيه هزيمة" الأذفونش " قائد النصارى وجنوده أمام جيش الموحدين في " موقعة ((الأرك " سنة 59 هـ)) [3] وعقد موازنة بينه وبين إبليس، الذي أغوى قريشا بالحرب على المسلمين، ولما حدثت معركة بدر الكبرى وانهزم جيش الشرك أمام المسلمين بفضل نصر الله لهم، تبرأ إبليس منهم ولحق بهم الخزي والعار من جراء طاعتهم له. وكذلك حال النصارى وقائدهم في هذه الواقعة، فالتاريخ يعيد نفسه، والشاعر يعود لتراثه ليجد شبيها لتلك الواقعة، والانتصارات الإسلامية ليوظفها في هذا النصر قائلا:

فَأَوْرَدَ أَذْفُنْشُ شِيعَتَهُ الرَّدَى   وَسَاقَهُمُ جَهْلًا إِلَى البَطْشَةِ الكُبْرَى
حَكَى فِعْلَ إِبْلِيسٍ بِأَصْحَابِهِ الأُلَى   تَبَرَّأَ مِنْهُمْ حِينَ أَوْرَدَهُمْ بَدْرًا [4]

ومن الوقائع الجسام التي دخلت التراث التاريخي من أوسع أبوابه، وحظيت باهتمام الشعراء، هي تلك الفتن والحروب التي عصفت بالمسلمين على عهد الخليفة علي بن أبي طالب – كرم الله وجه – ومن أشهر تلك الفتن موقعة " يوم الجمل " وموقعة " صفين " وأشهر يوم فيها هو يوم " التحكيم " بعد الخلاف الذي وقع بين الإمام علي كرم الله وجه في هذا اليوم وخصومه، والذي أدى إلى حدوث موقعة " النهروان " فضلا عن الحادثة الكبرى وهي مقتل الحسين عليه السلام، وحمل رأسه على الرمح إلي يزيد بن معاوية، فيحاول الشاعر ابن شكيل الأندلسي، أن يستلهم كل تلك الفتن والوقائع التي ألمت بالمسلمين، ويستذكرها في قصيدة قالها في رثاء أهل البيت، متتبعا جل تفاصيلها، وساردا لأحداثها بالتلميح والإشارة والتصريح، مستذكرا قتل الحسن والحسين ومكان قبرهما بيثرب والعراق، وقتل الإمام علي على يد عبد الرحمن بن ملجم، مع استدعائه لموقعة بدر وحسن بلاء الإمام علي فيها ومستلهما

[1] الضليل: اسم من أسماء امرؤ القيس التي عرف بها.

[2] الشاعربن شكيل، أبوالعباس أحمد بن شكيل الأندلسي، تحقيق وتقديم حياة قارة (ط1 1998م) منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة، ص 79.

[3] هي معركة حدثت بين المسلمين بقيادة الموحدين، وبين النصارى بقيادة الأذفونش سنة 59هـ وانتهت بهزيمة الأدفونش وجنوده وانتصار المسلمين، انتصارا كسر شوكة الصليبين. ينظر الفتن والحروب وأثرها في الشعر، جمعه شيخه (د ط 1997م) تونس، ص 159- 168.

[4] ديوان أبي العباس الجراوي، ت علي إبراهيم كردي (د ط 1994م) دار سعد الدين، دمشق، ص 91.

كل ذلك في قصيدة سرد فيها كل تلك الوقائع بلغة حزينة، تحمل حسرات الشاعر المسلم بشكل عام، على ما جرى على المسلمين في فتن في تلك الحقبة، ولعل واقع الشاعر الأندلسي الذي يعيشه وما يسود فيه من فتن والخراب أيضا، هو الذي عاد بالشاعر إلى استذكار كل تلك الحوادث والفتن الإسلامية، وهذه مقتطفات من تلك القصيدة التي ضمن فيها هذه الحوادث، والتي مطلعها:

يـا بـرق برقـا بـين مـروة والصـفا　　　بـاكر بسـقيا الحـج دينـا قـد عفـا

ويقول:

خُذْ نِ خَذِيْهما بحرة يَابِ　　　تــرِ وَ خَــــ بـــالعِ نِ تَخَلَّفَــا
شُلَّتْ يَمِينَ المَلْجَمِي فَإِنَّه　　　تَـرَكَ الإِمَامَـةَ بِالإِمَـامِ عَلَـى شَفَـا
أَرَى الشَّمَاتَةَ بِالوَصِي أُمَيَّـة　　　لاَ سِوَّها قَتْلُ الوَصِي ولاَ شَفَـى
وُتِّتْ أُمَيَّةُ لَو يُصَابُ بسيْفِها　　　يُكْفيكِ جَمْرقيًّا أُمَيَّـةَ لَـو كَفَـى
أَشَفاكُم مِن وَمٍ بَرٍ قَتْلَه　　　تِلْكَ الشَّهادةُ مَا بِذَلِكَ مِن خَفِـي
وَابكي عَلَى السِّبْطَيْنِ بَعدَ أَبيهِما　　　حُبًّا لِجَـدِهِا الرَّحِيـمِ الأَرْأَفَـا
عُوْرِي لَقَدْ جارَ الضَّلالُ عَلَى الهُدَى　　　بِـالطفِ فِـي قَتـلِ الحُسَـينِ وَطَفَفَـا
يَا لَيتَ شِعرِي كَيْفَ كَانَ عَلَى العَصَـا　　　رأسُ الحُسَينِ وَنُورُه كَيفَ انطَفَـا
أَمْ كَيْفَ قُرِعْ بِالقَضِيبِ ثَنْيَةَ　　　كَانَـت مَلـذًا لِلنَّبِـي ومَرْشَـفَا
إِنْ يَرْفَعُوا رَأْسَ الحُسَينَ فَقَبْلَه　　　رَفَعُـوا لِـوَاذًا مِـن أَبِيـهِ المُصْحَفَا
إِهَا حَدِيثًا عَن فُؤَادِ إِنَّه　　　نَكِـرُ الرَّسُـولَ آلِـهِ فَتَشَـوَّفَا[1]

فالقصيدة كما نلاحظ مفعمة بالحوادث والوقائع، التي تذيب القلب من كمد ما حل بالإسلام، في تلك الحقبة التي استدعاها الشاعر، في رثاء آل البيت، فهو حزين متأسف لما حدث لهم، جراء تلك الفتن التي حاقت بالمسلمين.

أما إذا انتقلنا إلى العصر الحديث، فإن للشعراء أيضا وقفات مع الأحداث والوقائع التاريخية الهامة، التي مرت بها الأمة العربية والإسلامية، ومن هؤلاء الشعراء المحدثين على سبيل المثال، الشاعر أحمد شوقي، الذي قام هو الآخر باستدعاء بعض الأحداث، وعمل على توظيفها لطرح بعض آرائه وأفكاره، حول بعض القضايا، التي شغلت تفكيره، وحازت على اهتمامه .

ومن هذه القضايا على سبيل المثال تحول أمر الخلافة، عن مبدأ الشورى الذي أقره وارتضاه المسلمون لاختيار خلفائهم، إلى الحكم الوراثي الذي ابتدعه حكام بني أمية وجعلوه تقليدا فترة حكمهم، ثم انتقل فيما بعد إلى من جاء بعدهم من دول وإمارات. ولهذا نجده يقول في إحدى قصائده، ولعله يشير إلى عام الجماعة، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية:

(1) الشاعر ابن شكيل، ص 65 – 67.

عُودِي إلى مَا كُنْتِ في فَجْرِ الهُدَى ... "عُمَرٌ" يَسُوسُكِ و"العَتِيقُ" يَلِيكِ
إنّ الَّذِينَ تَدَارَكُوكِ عَنِ الهُدَى ... بَعْدًا! "ابنِ هِنْدٍ" طَالَمَا كَذَبُوكِ
لَمْ يَلْبَسُوا بُرْدَ النَّبِيّ وإِنَّمَا ... لَبِسُوا طُقُوسَ الرُّومِ إذْ لَبِسُوكِ
إِنّي أُعِيذُكِ أَنْ تَرَى جَبَلاوَةً ... كَالبَابَوِيّةِ فِي يَدَيّ "رُودِرِيكِ"
أَوْ أَنْ تُزَفّ لَكِ الوِرَاثَةُ فَاسِقًا ... "كَهِرَقْلَ" أو كَالحَاكِمِ المَأْفُوكِ (1)

ويتضح من الأبيات السابقة، معارضة الشاعر أحمد شوقي، لما قام به معاوية وابنه يزيد في أمر الخلافة، وإخراجها من سياقها التاريخي، الذي كانت تسير عليه في صدر الإسلام، وتشبهها بدول الروم والفرس والأمم الأخرى، في شأن الحكم.

ويستخدم الشاعر خليل مطران التقية ليعبر من خلالها عن آرائه، وينفس بها عن أفكاره وعواطفه السياسية المكظومة تجاه الخليفة العثماني، وما ينزله بأحرار هذه الأمة وثوارها، من أعمال القتل والفتك، وكان السلطان عبد الحميد قد قام بقتل وزيره مدحت " باشا" المصلح العظيم، هذا الحادث الأليم وما يشبهه من حوادث، تقض مضجع هذا الشاعروتؤذي مشاعره، فكيف السبيل للتعبير عن موقفه تجاه هذه الحوادث؟ فوجد الوسيلة في استدعاء التاريخ واستلهام وقائعه، فاختارمنه قتل كسرى الباغي لوزيره " برزجمهر" ليصور من خلالها هذا الملك الفارسي واستبداده وطغيانه الشديد. فيقول:

سَجَدُوا لِكِسْرَى إِذْ بَدَا إِجْلَالاً ... كَسُجُودِهِمْ لِلشَّمْسِ إِذْ تَتَلالا
يَا أُمَّةَ الفُرْسِ العَرِيقَةِ فِي العُلا ... مَاذَا أَحَالَ بِكِ الأُسُودُ" سِخَالا" *
كُنْتُمْ كِبَاراً فِي الأُسُودِ أَعِزّةً ... وَاليَوْمَ بِتُّمْ صَاغِرِينَ ضِئَالا (2)

وأكبر ظننا أن الشاعر مطران لم يرد بكسرى إلا السلطان عبد الحميد نفسه، فإن كسرى لم يعرف في تاريخه بالهزائم المتعاقبة، التي لحقت بجيوشه، بل هذا ما عرف به السلطان عبد الحميد، الذي كانت جيوشه تعاني هزائم متوالية، في البلقان وغير البلقان، وكانت روسيا وغيرها من الدول تضيق عليه الخناق، وينعي مطران على شعب كسرى – وهو يريد شعب عبد الحميد – هوان نفسه عليه وصغاره أم جبروته وطغيانه، فيقول:

مَا كَانَ كِسْرَى إِذْ طَغَى فِي قَوْمِهِ ... إِلّا لِمَا خَلَقُوا بِهِ فَعَّالا
هُمْ حَكَّمُوهُ فَاسْتَبَدَّ تَحَكُّمًا ... وَهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَصُولَ فَصَالا
وَالجَهْلُ دَاءٌ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... فِي العَالَمِينَ وَلا يَزَالُ عُضَالا
لَوْلا الجَهَالَةُ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ ... إِلّا خَلائِقَ إِخْوَةً أَمْثَالا
لَكِنْ خَفْضُ الأَكْثَرِينَ جَنَاحَهُمْ ... لِلْمُلُوكِ يُعِدُّهُمْ الأَبْطَالا

---

(1) التراث والمعارضة عند شوقي، ص 30.

* السخال: أولاد الشاة.

(2) دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف (د ط 2005م) دار المعارف، مصر، ص 130.

وَإِلَا رَيتَ المَوجَ يَسْـقُـُ بَعْضَـه فَيْـَ تَالِه طَـغَ وَ ـَتـالَى
قَّـس ٌ لِـفِطْ ـَ ـةِ كلّ ـَ ـيّ لا ـٍ لا يُـْتَبَـى ـَ ـ، الحـَـكِيـَ كَالا ـَ (1)

والشاعر خليل مطران في هذه الأبيات يتحدث، عن أن طغيان الحكام مسئولة عنه الشعوب، فلولا تمجيد كسرى وتعظيمه، ما انتهى إلى هذا الاستبداد كله. ويرجع ذلك إلى داء الجهل القديم في الشعوب، والذي يدفع أفرادها إلى إعلاء شأن ملوكهم وحكامهم، وخضوعهم لهم في ذلة وصغار ومهانة، لا لشيء إلا لجهالتهم، وهو يريد في ذلك كله الشعب التركي والشعوب التابعة له، التي تحني رؤوسها للسلطان عبد الحميد وبغيه وطغيانه، فإذا هو يرتكب أشنع الجرائم والحماقات. وهكذا استطاع الشاعر من خلال استدعائه لحوادث التاريخ أن يعبر عن موقفه من حادثة معينة، وحوادث مشابهة لها، وما كان له ذلك لولا هذه الوسيلة وذلك التوظيف، خوفا من بطش السلطة وتجبرها، وما قد يلحقه من أذى جراء آرائه ومواقفه.

وفي قصيدة " مرآة الشاهد " للشاعر أدونيس، التي يستدعي من خلالها واقعة مقتل الحسين بن علي واستشهاده، ليعبر عن شديد حزنه لتلك الفاجعة، التي تألم لها كل مظاهر الوجود لهولها، ولعظم مصيبتها بعد أن استقرت الرماح في حشاشة الحسين، وازينت بجسده،.وداست الخيول كل نقطة فيه، واستلبت وقسمت ملابسه:

رأَيْتُ كُلّ حجْرٍ يَحْنُو علَى الحُسينِ
رأَيتُ كُلّ زهرَةٍ تَنَامُ عِندَ كَتِفِ الحُسَيَنِ
رأَيتُ كُلّ نَهَرٍ يَسيرُ في جِنَازَةِ الحُسينِ

وإلى جانب دلالة الحزن والأسى والتحسر والتألم، التي ارتبطت بهذه الواقعة، فقد عبر به الشعراء عن قضية أخرى ((تتعلق بتفرد أصحاب الدعوات الكبرى ووحدتهم، وسلبية الجماهير إزاء دعواتهم، لأن القضايا الجليلة لا يقوى على حملها إلا المجاهدون الكبار)) (2)

وقد حرص الشاعر الليبي علي الفزاني هو الآخر، على استغلال المصدر التاريخي وتوظيف أحداثه ووقائعه. فمن العبارات المعروفة في التاريخ عبارة الجنرال الفرنسي " جورو " بعد معركة ميسلون الشهيرة، حين قال: ((ها قد عدنا يا صلاح الدين)) (3) وهي عبارة تظهر مدى حقد وتشفي الغرب من هذه الأمة، وإشارة إلى معركة " حطين " التي مني فيها الصليبيون بهزيمة نكراء دونها التاريخ، وسجل بطولاتها وملاحمها. وقد عمل الشاعر علي الفزاني، على توظيف هذه الواقعة

(1) المصدر نفسه، ص 131.
(2) المسرح والمرايا، أدونيس (د ط 1968م) دار الآداب، بيروت، ص 91.
(3) الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني، أمين صالح محمود (د ط 1995م) جامعة قار يونس، بنغازي ليبيا، ص16 .

واستغلالها، في إحدى نصوصه الشعرية، لتذكير العرب بأهداف الغرب في احتلال الأرض العربية، وتدنيس مقدساتنا، وفي الاحتلال الإسرائيلي خير شاهد على ذلك. يقول:

إنّ شرقي وهو كنزٌ منذ حينٍ نهبوه
منذ أن عادوا جيوشاً تستعيد
معبد القدسِ العتيد
نحن عُدنا يا صلاح
اذكريها
نحن عُدنا يا صلاح [1]

ونجد الشاعر علي الفزاني يعمل على توظيف حوادث تاريخية أخرى، لبث روح الانتقام من العدو الإسرائيلي، ويحرض الأمة على تبني هذا الموقف في قصيدته " عن الموت والحرية وصايا الفقراء " وقد جعل من استدعاء قول امرئ القيس عندما أتاه نبأ مقتل أبيه " اليوم خمر وغدا أمر" وسيلته للتعبيرعن ذلك وعن فرضية استعداد هذه الأمة للثأر لكرامتها، إضافة إلى استدعائه قصة (أبطال " الرجيع " التي تحدثت عنها كتب التاريخ، وسجلت نذر سلافة بنت سعد لئن ظفرت برأس عاصم لنشربن في قحفه الخمر) [2] لقتل عاصم لولديها يوم أحد، وفي قولها ونذرها دلالة واضحة، على رغبتها في الانتقام منه، وقد حاول الشاعر الربط بين هذا الحقد، وبين ما يكنه العدو الإسرائيلي للعرب، ولا يتوقف الشاعر عند هذا بل يستدعي موقعة " ذي قار " وهي من المعارك الهامة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية، ويجعل منها مقابلا لمعركة بيروت التي رأى فيها كذلك معركة العرب، فكلا المعركتين من وجهة نظره، هما دفاعا عن كرامة العرب، كما قام باستدعاء شخصية كليب ومقتله، والذي بسبب هذه الحادثة استمرت الحرب أربعين عاما، وها هو يقتل في بيروت مجددا كما يرى الشاعر، مما يستوجب خوض معركة طويلة مع هذا العدو والمتمثل في العدو الصهيوني، وقد وظف الشاعر كل هذه الأحداث في نص واحد، وفي مقطع واحد قال فيه:

يومنا أمرٌ فهل في الكأس
وشدّي على الخيل السروج
كليبٌ أحبابنا قتلوه لا نعي حتى تلبس الأرض دماء
فبيروت كذي قارٍ تسلوت النائبات

(1) الأعمال الشعرية الكاملة، علي الفزاني (دط 1983م) المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس ليبيا، ص 334 .
(2) ينظر معجم القبائل العربية القديمة والحديثة، عمر رضا (د ط 1968م) دار العلم للملايين، بيروت، ص 126.

لماذا تُذابُ الجريمةُ في الكؤوسِ؟ ويشربُ القاتلون
في قحفِ الرؤوسِ العربيةِ الخمر
لماذا يُقتلُ الفكرُ ويُغمدُ السيفُ ويُفرضُ زيفَ السلامُ
ألا هُبّي من منامكِ الآن ودُقّي الطبولا (1)

ويتحدث الشاعرالليبي علي الخرم عن الواقع العربي المتردي، وسخطه على ما يحدث في فيه من صور الدمار والخراب، لتصدر المشهد ثلة من السفلة والهمجيين والأوغاد والقتلة والعابثين، ولهذا يربط الحاضر، بما حدث في الماضي، فيستدعي من الذاكرة ما جرى لبغداد على يد " هولاكو " وما قام به من تدمير لكل صور الحضارة الإنسانية، التي كانت تنعم بها تلك المدينة، فتحولت بسبب غزوه لها إلى مأساة، وصور من التقتيل والتنكيل والتشريد والحرق. والشاعر إذ يستدعي هذه الحادثة فهو يربط بينها وبين الحاضر، وأن ما يجري به هو عودة لذلك الحدث السابق الذي تمثل في عودة " هولاكو " الذي استدعاه الشاعر من عمق التاريخ، واصطحابنا معه لتلك الفترة التي شهدت غزو هذه الأمة، وما حدث لأحد أمصارها وهو العراق. يقول الشاعر:

أجل قد عاد هولاكو
بذات الخلقة الشوهاءُ
والوجه المشققُ بالندوب
كأنه الجدري
بذات الخوذة القرنية النكراءُ
يقود جحافل التترُ
يجوس بهم فجاجٌ
تدميراً وتنكيلا
ويعمل سيفه في العزل الضعفاء تقتيلا
ويملأ هذه الأكوانَ
بروح العسف والطغيانُ (2)

هكذا صور الشاعر هذه المأساة واستدعى، صورة قائدها البشعة و المقززة والمنفرة، الذي كان آفة ذلك العصر، بوحشيته وهمجيته وهو ينشر الخراب والدمار أينما حل، ولهذا لا يرى فرقا بين هذا الطاغية وبين من يحملون فكره، من عداء

(1) ديوان دمي يقاتلني الأن والقنديل الضائع في المدن الوثنية (د ط 1984م) المنشأة العامة للنشر، طرابلس ليبيا، ص 116.
(2) قضايا الإنسان المعاصر، ص 61، 62.

للإنسانية وحضارتها، إلا في الزي والزمن، أما ما يمارسونه على الواقع فهم لا يختلفون عنه في قليل ولا كثير.

أما إذا تحدثنا عن شاعرنا أحمد الشارف موضوع هذه الدراسة، فإن له بعض الاستدعاءات لبعض الأحداث التاريخية الهامة والبارزة، في التاريخ العربي والإسلامي، ويأتي في مقدمتها حادثة الإسراء والمعراج، تلك الواقعة العظيمة التي كرم الله فيها نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، حين أسرى به في رحلة مباركة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليريه بعض آياته ومشاهد عظمته وقدرته، التي تجلت في كل خطوة خطاها، منذ بداية تلك الرحلة، وما سخره له فيها من وسيلة انتقال، كانت معجزة وآية من آيات الله الباهرة، التي حيرت الألباب وأذهلت العقول، في قدرتها على قطع تلك المسافة الفاصلة، بين مكة وفلسطين ورجوعه في ليلة واحدة، في الوقت الذي كانت العرب فيه تضرب أكباد الإبل شهورا وشهورا لتصل لذلك الموطن، هذا إلى جانب صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء والرسل، ثم صعوده عليه الصلاة والسلام إلى السموات السبع، ومشاهداته في كل سماء مر بها من الآيات العظام التي لم يطلع عليها أحد من البشر سواه، وما كان ذلك إلا تكريما وتشريفا له عليه الصلاة والسلام من المولى عز وجل، الذي أدناه وقربه، وغمره بنور جلاله وواسع رحمته، وأعطاه من الفضائل ما أعطاه، لتكون شاهدا له على عظيم قدره، وعلو منزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم عند مولاه، ثم عودته المباركة إلى الأرض بعد هذه الرحلة التي جعلت الناس بين مصدق ومكذب، إلا من كان إيمانه راسخا رسوخ الجبال، ولا يدانيه شك في قدرة الله وعظيم سلطانه، ولا في صدق رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وهذا ما كان من شأن بعض الصحابة، وعلى رأسهم أبوبكر الصديق رضي الله عنه، الذي كان أول من صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، في روايته لهذه الرحلة الربانية العظيمة، وأول من دافع عن حقيقتها، ثم أنزل المولى سبحانه وتعالى من القرآن الكريم، ما يعزز ويؤكد ما جاء به رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ليكون شاهدا على هذه الرحلة ومسجلا لها.
يقول المولى عز وجل في كتابه الكريم: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[(1)].

وقد درج المسلمون على الاحتفال بهذه المناسبة، كما درج الشعراء على استدعائها، وذكر مآثرها وفضائلها، ومنها هذه الأبيات التي قال فيها الشاعر أحمد الشارف:

فِي مُـ ـتَـ ـى السَـبْـ ـ لعِـر ـ بن ـ ر ـ جَـبٍ ... بَـلٌ ـدَ ـى فِيـهِ ذَـر لعُـجْـ لعَـ ـبِ
مِعْـرَاجُـهِ ـدق وَ تَمْحِـيصٌ لِعَوَ تِـهِ ... مَـا كَـانَ مِـن ثَـابِتٍ فِيهِ لَو مُضْطَرِبُ
قَـدِ بَـيّنَ اللّـهُ فِـي أَنْحَـاءِ قِصـتّـه ... مَا فِي السّرَائِرِ مِن صِدْقٍ وَمِن كَذِبِ
ذرأَى الآيَـةَ الكُبْـرَى فَلاَ عَجَبٌ ... لَيْـ فِي قُـ ـرَ ـةِ ـرّ ـدنِ ـنِ عَجَـبِ

(1) سورة الإسراء، الآية 1.

قَدْ نَالَ مَا نَالَ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ حَسَدٌ قَدْ نَالَهُ قَبْلُ مِنْ فَضْلٍ وَمِنْ حَسَبِ
وَسُورَةُ النَّجْمِ قَدْ جَاءَتْ مُؤَيِّدَةً لِمَا رَآهُ وَمَا فِي النَّجْمِ مِنْ رِيَبِ
وَإِنَّ لِلَّهِ أَسْرَارًا مُحَجَّبَةً وَكَمْ لَهُ فَوْقَ عِلْمِ النَّاسِ مِنْ حُجُبِ
وَأَقْرَبُ النَّاسِ لِلْإِيمَانِ أَقْرَبُهُمْ لِلصِّدْقِ وَالشَّيْءُ يَقْوَى قُوَّةَ السَّبَبِ
أَعْظِمْ بِقَدْرِ نَبِيٍّ نَالَ مَنْزِلَةً فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهَا بِمُقْتَرِبِ [1]

(وممن وضعه الشعر حتى انكسر نسبه، وسقط عن رتبته، وعيب بفضيلته بنو نمير، وكانوا جمرة من جمرات العرب، إذا سئل أحدهم ممن الرجل؟ فخم لفظه ومد صوته وقال: من بني نمير، إلى أن وضع جرير قصيدته التي هجا بها عبيد بن حصين الراعي، فسهر لها وطالت ليلته، إلى أن قال:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

فأطفأ سراجه ونام وقال: قد والله أخزيتهم آخر الدهر، فلم يرفعوا رأسا بعدها إلا نكس بهذا البيت، حتى أن مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة ممتارا، فيصيح به بنو نمير: يا جوادب باهلة، فقص الخبر على مواليه، وقد ضجر من ذلك، فقالوا له إذا نبزوك فقل لهم: فغض الطرف " البيت " ومر بهم بعد ذلك فنبزوه، وأراد البيت فنسيه، فقال غمض وإلا جاءك ما تكره، فكفوا عنه ولم يعرضوا له بعد ذلك ومرت امرأة ببعض مجالس بني نمير، فأداموا النظر إليها فقالت: قبحكم الله يا بني نمير ما قبلتم قول الله عز وجل: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}[2] وقول الشاعر: فغض الطرف " البيت ".

((وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضحة، وقيل سماها جرير الدماغة، تركت بني نمير ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة، ويتجاوزون أباهم نميرا، هربا من ذكر نمير، وفرارا مما وسم به من الفضيحة والوصمة)) [3]

وقد استدعى الشاعر أحمد الشارف هذه الحادثة من التاريخ، ليدافع عن صديقه الشاعر محمد عبد القادر الحصادي، الذي قصر أحد أصدقائه وهو عمر فخري المحيشي الصحفي والكاتب عن زيارته، بعد أن قدم إلى مدينة درنة، وزار كل الأصدقاء إلا شخصه، فعتب عليه الشاعر وأخذ يلوم حظ الشعراء، وكيف لا يدعى إلى الحفل الذي أقامه علي الجربي، الرجل المثقف ونائب عميد بلدية درنة، تكريما لعمر فخري المحيشي، ولما سمع الشاعر أحمد الشارف هذا الموقف غضب لصديقه الشاعر الحصادي، ووقف مدافعا عنه، ومعليا من قيمة الشعر والشعراء وأهمية

[1] أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 351.
[2] سورة النور، الآية 30.
[3] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص 21، 22.

دورهم، في المجتمعات قديما وحديثا، وقدلاحت في ذهنه هذه الحادثة فاستدعاها ليؤكد بها ما ذهب إليه في هذا الشأن فقال:

مَا تَرَى الشّعْرُ يَرْضَى لِصَاحِبِهِ　　بِـ هُـَلنوَ تَرْعَى لَه نِمَـم
رَمَى قُرَيْواً بِهِم عَن غَيْرِ طَائِشَةٍ　　حَتّى أُصِيتْ بِجَرحٍ لَسِ لِّ تَئم
الشّعْرُ كَالنّحْلِ يُجْنِي كُلّ فَاكِهَةٍ　　لَكِنْ ذَا هَجَ فِيهِ السّمّ الدّسم [1]

ومن الأحداث والوقائع الأخرى، التي استدعاها الشاعر أحمد الشارف في أشعاره، غزوة بدر الكبرى وغزوة حنين، فهي من الغزوات التي انتصر فيها المسلمون على الكفار من قريش، ومن قبيلتي هوازن وثقيف وأحلافهما من المشركين. فكانت انتصارات مؤزرة وباهرة، فرح بها المسلمون وسروا بها أيما سرور، ورأى الشاعر أن يستدعي هذا الفرح وهذه البهجة ليوظفها، ويعبر بها عن فرحه وسعادته هو الآخر، وإن كان في موضوع آخر يختلف عن شئون الحرب والقتال، وهو موضوع الحب والغرام، الذي رأى فيه الكثير من التضحيات التي يبذلها أصحابه في هذا المضمار، وهي كغيرها من التضحيات في مجالات الحياة الأخرى، بما فيها الحروب والمعارك، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين جعل من مات في سبيل حبه وغرامه شهيدا، شأنه في ذلك شأن شهداء بدر وحنين، وما نراه إلا تكلفا من الشاعر وإيغالا ومبالغة، في غير محلها، لكن تظل رؤية فنية ليس لنا إلا أن نسجلها، ونترك الحكم عليها لغيرنا من أهل الاختصاص في مسألة جواز القول من عدمه. يقول الشاعر:

رُ الكَى سْنَ عَنْ مَدْيَا　　ـ رْنَا فِيهِ تَرْكَ لِجَتّنِ
شَهِدْنَا البَدرْ يَزِغُ فِي يَدَيْهِ　　شُمُوس فِي كُسُوٍ مِنَ لُجَيْن
لَدَى حَانَ يَحِنّ إِلِيهِ قَلْبٌ　　وَقّعَ بِالتَقَلّبِ كُلّ حِين
نَعِيشُ بِهِ وَإِنْ مِتْنَا أُضِفْنَا　　إِلَى شُهَدَاءِ بَدرٍ أَو حَنينَ
وَلَولا نَظْرَةُ الأَحْبَابِ يَوماً　　لَهَانَ عَلَيّ فِيهِ ذَهَابُ عَيْنِي
فَمَا لِي عَنْهُم خَلَفٌ إِذَا مَا　　حِجَابُ حَالَ بَيْنَهُم وَبَيْنِي
عَلَى أَنّ الصّلّيَةَ فِيّ تَقْضِي　　بِأَنّ لِقَا الأَحِبَةَ فَرضُ عَينِ
وَإِنّي إِنْ رُدِتْ إِلَى سِوَاهُم　　قَضَيتُ عَلَى الفُؤَادِ بِرَيّتَيْنِ
لَقَد عَبِقَتْ مَجَالِسُهُمْ بِذِكْرٍ　　يَطِيبُ شُذَاهُ بَينَ الخَافِقَينَ [2]

ثانيا / استدعاء الأماكن التاريخية:-

لاشك أن المكان يشكل عنصرا حتميا في بعض الفنون الأدبية، لا يمكن أن نغفل عنه حين نقوم بدراسته، نحو المسرحية والعمل السردي، فلا يستغرب وجود هذا

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 302.
(2) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 148.

العنصر واتصاله بفنية الأدب، وفي ظل التطور المنهجي العلمي، وجهت الدراسات الأدبية الحديثة أنظارها نحو المكان في النصوص الشعرية، فقد أخذ الاهتمام بالمكان عند الباحثين المعاصرين يكتسب طابعا علميا، فالمكان حيز ووجود ((وهو فضاء تتعدد وظائفه ومعانيه بالنسبة لصاحبه والآخرين، وكل اعتداء على جزء منه، قد يولد ثورة واحتجاجا، وقد يكون في صورة أخرى دلالة على التقرب والمحبة، وهي معان لا تنشأ من المكان أصالة، بقدر ما تنشأ عن الظواهر المصاحبة له)) [1].

ويرى بعضهم أن المكان ((سلسلة الأنماط الشيئية المتوزعة التي تمثل حيزا، ولها أبعادها وخصائصها المادية، ففهم المكان قائم أولا على الخبرة والتجربة، إن فهم المكان يعني أن نجربه، وبذلك يصبح المكان إطارا للأشياء ينطوي عليها ويبرزها، ويصبح التعبير مكانيا هو تعبير عن خصائص الموضوعات المادية المحيطة بنا، التي سرعان ما تتكون صلاتنا بها))[2] إذن ليس المكان ذلك المعطى الخارجي المحايد الذي نغيره دون أن نأبه به، وإنما المكان حياة، لا يحده الطول والعرض فقط، كما أن له خاصية الاشتمال والالتصاق بالنفس البشـــرية، فلهذا لا يمكن إغفاله أو طرحه من الدراسـات الأدبية، (فـعلاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي والوهمي، ويكفي أن الشاعر يعيش في المكان على مستوى الوجود الحقيقي، ويسبح في المكان في عالمه الشعري، فيستحضر المكان من المعرفة الثقافية، ويقيم لنفسه وجودا فيه، أو يعدل من صورة المكان الحقيقي، كما يخترع المكان في الفن ويحتله بالوجود) [3].

هذا وعلاقة الإنسان بالمكان ((علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارس فاعليته في المكان، بل ويغير من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود المكـــان فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل)) [4]. فالمكان قريب من الإنسان ولصيق به ((إنه العالم الخارجي الذي يجسد الإحساس بالأشياء، باكتساب خصائص وصفات نوعية، تميزها عن سواها بما تمتلكه من خصائص عيانية)) [5].

ولو لم يكن للمكان حظوة عند الشاعر العربي، لما وجدنا كثيرا من النصوص الشعرية القديمة تفتتح بالوقوف على الأطلال، كبعض قصائد المعلقات التي نالت اهتماما كبيرا من النقاد والشراح القدامى والمحدثين، وما هذا الوقوف إلا إشارة

---

(1) فلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب مونسي (د ط 2001م) منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ص 10

(2) عبقرية الصورة والمكان، طاهر عبد مسلم (2002م) دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص 16.

(3) ينظر: شاعرية المكان، جويدي المنصور الثبيتي (د ط 1992م) شركة دار العلم للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، ص 10.

(4) بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، محمد السيد إسماعيل (د ط 2002م) دولة الإمارات، دائرة الثقافة والإعلام، ص 87.

(5) عبقرية الصورة والمكان، ص 16.

واضحة للعلاقة القوية بين الشاعر العربي والمكان، فهو لصيق به مهما غاب عنه أو أصابه التغيير، أو انتقل إلى غيره، بحيث يظل يختزنه في ذاكرته، ويتغنى به ((فالمكان ليس بأبعاد هندسية تحكمها المقاييس والحجوم فقط، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك نظام من العلاقات المجردة، يستخرج من الأشياء المادية الملموسة، بقدر ما يستمد من التجريد الذهني، أو الجهد الذهني المجرد)) [1].

والشاعر لا يتوقف عند المكان الذي ارتاده، أو عاش فيه إحدى تجارب حياته فحسب، وإنما نراه يعود بذاكرته أحيانا إلى الوراء إلى دائرة الزمن الماضي، زمن الآباء والأجداد، فيلتصق بأمكنتهم ومواضعهم التي سمع بها أو قرأ عنها، فنراه يصور أحاسيسه تجاه تلك الأمكنة، وكأنه مر بها أو عاش بين جنباتها، وما ذلك إلا رغبة في نفس الشاعر جعلته يستدعي ذلك الماضي، ويستأنس به إما لجماله أو لعظمته أو لقوته وهيبته، وهذا الموقف نراه عند الكثير من الشعراء، الذين عملوا على استدعاء جملة من أسماء الأماكن والمدن والبلدان، في محاولة لاستحضار بعض الأحداث والوقائع التاريخية، أو للإشادة بحسن وجمال تلك الأماكن وعظمة بنيانها وعمارتها، وخاصة في قصائد المدح التي كانوا ينشدونها في بعض الشخصيات.

ولما كان المكان بهذه المنزلة وتلك الفاعلية في الذات الإنسانية، كان اهتمام الباحثين به في جميع المجالات كافة، سواء الاجتماعية أو النفسية أو الجغرافية أو الأدبية، وما يهمنا طبعا في هذا المقام هو الدراسات الأدبية، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه من خلال تتبعنا لكيفية استدعاء بعض الشعراء للمكان، وكيفية توظيفهم له، وخاصة عند شاعرنا أحمد الشارف موضوع هذه الدراسة.

فمن استدعاءات الشعراء قديما للمكان، ما قام به الشاعر أبو تمام، من استدعائه لأكثر من مكان، في قصيدته التي مدح فيها إسحاق بن إبراهيم المصعبي حين أوقع بالمحمرة أصحاب بابك، حيث قال:

وَقَائِعُ نُدِّرَتْ مِنْهُنّ جَمْعٌ ... إِلى خَيْفَي مِنًى فَالموْقِفَينِ
مَحَوْتَ بِهَا وَقَائِعَ مِنْ مُلُوكٍ ... وَكُنَّ قَدْ مَلأْنَ الخَافِقَينَ
صَبيحَةُ خَالِدٍ أَنْسَتْ وَمَهْوَى ... عُبَيْدَ اللهِ فِيهَا والحُصَينَ
وَيَوْمُ الرِّيحِ إذْ لاقَتْ مَعَدٌّ ... بِأَجْمَعَهَا أُسْرَةً في رُعَينَ
وَأَيَّامُ الذَّنَائِبِ زَعْزَعَتْهَا ... وَيَوْمُ مُهَلْهِلٍ وَالشَّعْثَمِينَ
وَأَيَّامُ الكِلابِ غَدَاةَ هَزَّتْ ... مَرَارَ بَيْنَ فِيهَا مُتْرَفِينَ
أَخٌ تَرَكَتْ أَسِنَّتُهُ أَخَاهُ ... تَلِيلاً لِلْيَدَينِ وَلِلْجَبِينِ

[1] جماليات المكان، اعتدال عثمان (ط 1986م) مجلة الأقلام، بغداد، العدد 2، ص 76.

وَمِنْ سَاتِيدَمَا بُرُوزٌ فَتَتْ		شَبَا فَذْرٍ فَسِيحٍ طَائِفِينَ
بِلاَدَ فِيهَا إِيَّاسُ كُلَّ لَوْنْ		وَكُلَّ مُصَدَّمٍ فِي العَظْمِ لِينَ
وَحُجْرًا وَامْرَأَ القَيْسِ بْنَ حُجْرٍ		لَيَالِي كَاهِلٍ وَبَنِي مَعِينَ
وَيَوْمَ البِشْرِ أَنْسَتْهُ وَهَتْ		وَقَائِعُ رَاهِطٍ وَبُنَاتِ قَيْنْ
وَيَوْمَ المَصْدَقِيَّةِ حِينَ سَابُوا		أَنُوشُرْوَانَ خُطَّبًا غَيْرَ هَيْنِ
فَأَصْبَحُوا بَعْدَ عِزٍّ وَاخْتِيَالٍ		وَهُمْ عِبْرًا لأَهْلِ المَشْرِقَيْنِ
رَدَدْتَ الدِّينَ وَهُوَ قَرِيرُ عَيْنٍ		بِهَا لُوَ الكُفْرِ وَهُوَ سَخِينُ عَيْنِ [1]

فهذه المعركة فاقت معارك من كانت قبلها وأنست حروبهم التي مضت وبخاصة بين خازر[2] وفيف الريح [3] والذنائب من أيام حرب البسوس، التي كانت بين بكر وتغلب والشعثمان: وهما شعثم وشعيب أبناء معاوية بن عمر، وأيام الكلاب حيث هزمت فيه ربيعة تميما، ووقعة إياس بن قبيصة الطائي بقيصر وأصحابه ساتيدما، وقتل بني أسد حجرا، وقتله بني كاهل [4] ويوم البشر [5] ومراج راهط [6] ويوم المصدقية [7] فأبو تمام يمتلك ثقافة تاريخية عظيمة، ويسخرها في خدمة شعره، وتصوير ممدوحيه ومعاركهم.

ويقول في موضع آخر في شعره ذاكرا موقعة صفين:

تَصَبَّرُ لِلْبَلْوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً		فَتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائِمِ
وَلِلطَّرَفَاتِ يَوْمَ صِفِّينَ لَمْ يَمُتْ		خِفَاتًا وَلاَ حُزْنًا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمِ [8]

فعدي بن حاتم كان مع علي – رضي الله عنه – في معركة صفين، حيث قتل ثلاثة من أبنائه، في معرض تعزية مالك بن طوق ومواساته في أخيه قاسم، فمصاب عدي بن حاتم كان أفدح من مصابه ولكنه صبر.

---

(1) ديوان أبي تمام، ص 299 – 307.

(2) وقعة خازر هي وقعة إبراهيم الأشتر قائد المختاربن عبيد الله الثقفي، والثائر الذي ادعى أنه يأخذ بدم الحسين، وعبيد الله بن زياد، حيث قتل عبيد الله والحصين. ينظر: الكامل في اللغة، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم (ط3 1997م) دار الفكر، القاهرة، ص 2 / 47.

(3) فيف الريح بأعلى نجد، كانت فيه وقعة بين بني عامر وعلى رأسهم عامر بن الطفيل، وبني الحارث بن كعب ومعهم مدحج، وهم القحطانية ورمز له بأسرة ذي رعين. ينظر العمدة لأبن رشيق، ص 2، 225.

(4) ينظر معجم البلدان، ياقوت الحموي (د ط 1957م) دار صادر، بيروت، ص 3 / 168.

(5) يوم البشر: جبل في بادية الشام فيه ماء لتغلب، وفي هذا اليوم أوقع الجحاف بن حكيم السلمي بني تغلب في هذا الموضع، فبقر بطون نسائهم وقتل أطفالهم. فعل ذلك غضبا حين استثاره الشاعر الأخطل أمام عبدالملك بن مروان وضرب فيه المثل: أفتك من الضحاك. ينظر مجمع الأمثال، أحمد محمد الميداني، تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم (ط1 2007م) المكتبة المصرية، بيروت، ص 2، 88.

(6) مرج راهط: قرب دمشق حدثت فيه وقيعة بين الضحاك بن قيس الفهري، ومروان بن الحكم سنة 64 هـ. ينظر: صبح الأعشى، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق يوسف علي طويل (ط1 1971م) دار الفكر، دمشق، ص 1 / 450

(7) يوم المصدقية: ويقصد به المزدكية ويوم قتل أنوشروان مزدك وصلبه. ينظر: نهاية الأرب، شهاب الدين النوري، تحقيق مفيد قمحية وجماعة (ط1 2004م) دار الكتب العلمية، بيروت، ص 15، 148.

(8) ديوان أبي تمام، ص 3، 259.

ومن المعالم والشواخص الحضارية والتاريخية التي استدعاها الشعراء، هي تلك القصور التي خلدها التاريخ وعظم بناءها وجمالها ومناعتها، ومن أكثر تلك القصور حضورا قصرا " الخورنق " [(1)] و " السدير " [(2)] حيث استدعى الشعراء هذه القصور في وصف المباني الجديدة، التي شيدها الممدوح، فيعمد الشعراء إلى تفضيل قصور الممدوح على القصور التاريخية العريقة، كما فعل ابن حمديس في وصف دار بناها " المنصور بن أعلى الناس " فيفضل فيها تلك الدار، علي قصري الخورنق والسدير، ولا يكتفي بذلك بل يفضلها على إيوان كسرى [(3)] في أسلوب جميل، يستلهم فيه كل تلك المعالم، بما يخدم غرضه الشعري حيث يقول:

عَمَرَتْ بَيْنَ النُّجُومِ الدُّرِّيِّ ... قَصْرٌ بَنَاهُ مِنَ السَّعَادَةِ بَانِ
فَضَحَ الخُورْنَقَ وَالسَّدِيرَ بِحُسْنِهِ ... وَسَمَا بِقِمَّتِهِ عَلَى الإِيوَانِ
فَلِذَا تَطَوَّتْ إِلَى مَرَاتِبِ مُلْكِهِ ... وَبَعَثَ إِلَيْكَ شَوَاهِدُ البُرْهَانِ
أَوْجَبْتَ لِلْمَنْصُورِ سَابِقَةَ العُلَى ... عَنَتْ عَنْ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانِ [(4)]

كما يستدعي بعض الشعراء بعض المدن المشرقية، من خلال شوقهم وحبهم لتلك البلاد ومنهم الشاعر ابن عربي، الذي يفصح في إحدى قصائده عن حبه لبغداد فهي أحب بلاد الله إليه بعد الأماكن المقدسة، طيبة ومكة والأقصى، وذلك لأنه فارق فيها حبيبه، فحنينه ليس إلى الديار، وإنما لمن سكن الديار فيقول:

حَبَّبَ بِلادَ اللهِ لِي بَعْدَ طَيْبَةٍ ... وَمَكَّةَ وَالأَقْصَى مَدِينَةُ بَغْدَانِ
وَمَا لِيَ لا أَهْوَى السَّلامَ وَلِي بِهَا ... إِمَامٌ هُدَى دِينِي وَعَقْدِي وَإِيمَانِي
وَقَدْ سَكَنَهَا مِنْ بُنَيَّاتِ فَارِسٍ ... لَطِيفَةُ إِيمَاءٍ مَرِيضَةُ أَجْفَانِ
تُحَيِّي فَتُحْيِي مَنْ أَمَاتَتْ بِلَحْظِهَا ... فَجَاءَتْ بِحُسْنَى بَعْدَ حُسْنٍ وَإِحْسَانِ [(5)]

ومن استدعاء الشعراء أيضا لبعض الأماكن، استدعاء الشاعر ابن سهل في إحدى قصائده لجبل " رضوى " في دلالة الاستقرار والحلم، إذ يرى في سكونه حلم وهذا تشخيص للجبل في أبيات مدحية يصف بها الممدوح بالحلم والبأس، فهو حليم جواد محبوب، ذو بأس شديد على الأعداء، يحاكي حلمه ورزانته جبل " رضوى " ولكن تحته بأس شديد يهد " رضوى " وغيره وذلك في قوله :

تَلْقَاهُ مَحْبُوبًا عَلَى سَطَوَاتِهِ ... وَعَلَى نَدَاهُ وَبِشْرِهِ مُتَهَيِّبَا
كَالرِّعْدِ ذَا النَّصْلَانِ أَيْنَ دَنِيتَه ... أَلْفَيْتَهُ مِنْ حَدِّ تَيْهِ [illegible]

(1) الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة للنعمان بن المنذر، وقد بناه سنمار. ينظر: معجم البلدان، ص 2، 40.

(2) السدير: قصر قريب من الخورنق كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم، ويقال هو السدير له ثلاثة أبواب، ويقال سمي السدير لكثرة سواده وشجره. ينظر: معجم البلدان، ص 3 / 201.

(3) إيوان كسرى وهو في المدائن زعم أنه تعاون على بنائه عدة ملوك، وقيل أن من بناه سابور بن أردشير، وهو من أعظم الأبنية وأعلاها مبنى. ينظر معجم البلدان، ص 1، 294.

(4) ديوان ابن حمديس، ص 294، 295.

(5) ترجمان الأشواق، محي الدين ابن عربي، ص 150.

كَلَّمَ ثْــرَ فِي خَ بَـــقَو ـــــةً   وكَالزَمّـــانِ تَـــهُ وَ تَصَـــعَّبَا
دُمٌ كَمَ " رِ ضَدْ " وَلَكِنْ تَحْتَه   ِن " رِ ضَدْ ى " يَهْدُ كَبْكَبَا[1]

ومن استدعاء الشعراء للأماكن التاريخية الأخرى، استدعاء الشاعر الحكيم أبي الصلت للأهرامات في مصر، حيث يقول:

يْتِكَ هَـ أَبْصَـرْتَ عْـبَ ظَـرا   عَ طُ لِ أَبْصَـرْتَ ِن هَرْمي ِمصْرَ
أَنَافَـــا بِأَعْـــانِ السَّـــمَاءِ وأَشْــرَفَا   عَلَـى الجَوّ إِشْرافُ السِّمَاكِ أَو النّسْرَ
قَوَافَـا شَرْ من الأَ عَالِـيـا   كَأنَّهُمَا ثَدْيَانِ قَمَا عَلَ صَـدْرِ[2]

فالشاعر كما نرى من خلال الأبيات السابقة، يتعجب من هذه الأهرامات التي تمثل دليلا على الحضارة القديمة وتطور بنائها، وهي تعد إلى اليوم إرثا تراثيا يعتز به العرب، ويفد إليه السواح من مختلف البلدان، ليشاهدوا هذا المعلم العريق.

ويتساءل الشاعر الأعمى التطيلي عن هذين الهرمين الكبيرين في الحجم، القديمين في الزمان، هل مرا بمرحلة الشباب وتمتعا بها، ثم كبرا وشاخا، أم هما من الأصل هكذا كبيران. يقول فيهما قصيدته الرثائية التي يتحدث فيها عن صروف الزمان وغدره قائلا:

خُـ حَـدِّثانِي عَـن فُــ فَــ   ـب أَ ى بَــقٍ عَـى الحَـدَثَانِ
وَعَــن دُوَلٍ جُـسٌ الــدِّيَارِ وأَهلَهَـــا   فَنِينَ وَصَرُوفُ الــدَّهْرِ لَيْسَ بِفَانِ
وَعَنْ هَرَمِـي مِصْرَ الغُـدَاةَ أَمُتِعَـا   بِشَــرْخِ شَبَابٍ أَم هُمَـا هَرَمَـانِ[3]

وكما وقف الشعراء القدامى على المكان، فقد وقف المتأخرون أيضا، فها هو الشاعر حافظ إبراهيم، يقف على أحد الأماكن المقدسة وهي الكعبة، ليستدعي منها تلك الصورة الرائعة للحجيج وهم يطوفون بالبيت، في تلك الأعداد الغفيرة والعظيمة، التي ترسم ذلك المشهد المهيب للمسلمين، وقد جاءوا من كل حدب وصوب تلبية لدعوة خالقهم جل وعلا، والشاعر قد أراد أن يستثمر من تلك الصورة، ما فيها من كثافة عددية، ليسقطها على جنازة الزعيم مصطفى كامل وما حفها هي الأخرى من مهابـــة، ومن جمـوع غفيرة تداعت من كل مكان لتوديع وتشييع ذلك الرمز الوطني والقومي، بكل ألم وحزن وحرقة، لذلك المصاب الجلل، وفقدان أحد أعمدة النضال و الجهاد في تلك الحقبة. ولهذا نرى الشاعر حافظ إبراهيم يقول أيضا:

يَسْـعَوْنَ حَــ نَعْشِكَ خُشَّـعٌ   يَمْشُــونَ تَحْــتَ لِوَائِكَ السَّـيّارُ
خَطّـوا بِأَدْمُعِهِم عَلَى وَجهِ الثَّرَى   لِلحُـزنِ أَسْـطارًا عَلَـى أَسْـطَارِ
آنَـا يُوَالُـونَ الضَّـجِيجَ كَأَنَّهُم   كْــبُ لحَـ كَعْبَــةَ الـزُ

---

(1) ديوان ابن سهل، قدم له إحسان عباس (د ط 1976م) دار صادر، بيروت، ص 67، 68.
(2) ديوان الحكيم أبي الصلت، ص 98.
(3) ديوان الأعمى التطيلي، ص 224.

وتخالهم أنا لفرط خشوعهم ... عند المصلى يصدون لقارئ
غلب الخشوع عليهم فدموعهم ... تجري بلا كلل ولا استئذان
قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيل دافق وشرار
أسعى فيأخذني اللهيب فأنثني ... فيصدني متدفق التيار
لو لم ألذ بنافذ أبطاله ... لقضيت بين جداول ونار (1)

ويقول الشاعر أحمد شوقي في إحدى قصائده أيضا:

نظم الشوق في الجزيرة بالغرب ... أطوي البر دحرجنا لهمس
في ديار من الخلائف درس ... ومنار من الطوائف طمس (2)

فقد وقف الشاعر في هذين البيتين، على البلاد الأندلسية متحسراعلى الماضي المجيد، وعلى تلك البلاد التي أضاعها المسلمون، وقد كانت جنة الدنيا، وعروس البلاد الإسلامية.

ويقول الشاعر محمود درويش أيضا مستدعيا إحدى المدن الأندلسية، في قصيدة بعنوان " بيروت " حيث يقول في إحدى مقاطعها:

بيروت من أين الطريق إلى " قرطبة "
أنا لا أهاجر مرتين،
ولا أحبك مرتين،
ولا أرى في البحر غير البحر
لكني أحوم حول أحلامي
وأدعو الأرض جمجمة لروحي المتعبة
وأريد أن أمشي لأمشي
ثم أسقط في الطريق ...
إلى نوافذ " قرطبة " (3)

وهذا الجزء من قصيدة " بيروت " يوضح أن " قرطبة " ترمز في شعره إ لى المكان الذي يعادل فلسطين وطنا، وهدفا، وذكرى، وهو هنا يشير إلى الطريق بما ترمز إليه في شعره، من كفاح طويل، تتخلله الهزائم والانكسارات والانتقال من نفي إلى نفي، كما يشير أيضا إلى الحب الواحد الذي لا يتكرر مرتين ويسميها أحلامه، ويسمي سفره باتجاهها تحليقا حول الأحلام، ولا يمانع في أن يظل يمشي ويمشي ويسقط، ثم ينهض ثانية ليمشي نحو " قرطبة " ونوافذها. ولا شك في أن استخدام الشاعر لكلمة " النوافذ " استخدام ذو دلالات بعيدة، لما تشير إليه من انفتاح واستشراف، وخروج من من الحصار والقبو، وهذه النوافد هي ذاتها التي يخاطبها الشاعر.

(1) دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 19.
(2) الشوقيات، ص 45.
(3) حصار لمدائن البحر، محمود درويش (ط2 1986م) الدار الأهلية للنشروالتوزيع، عمان الأردن، ص 65.

أما الشاعر سعد درويش فنراه في إحدى قصائده، يدعو إلى تجسيد العروة الوثقى، التي دعا إليها قبله الشعراء والأدباء والمفكرون، وذلك من خلال العودة إلى الماضي، واستدعاء بعض المدن وتاريخها، كتاريخ بغداد وأيامه الحافلة بالأمجاد، وهي طريقة يستخدمها الشاعر الحديث كثيرا عند حديثه عن المكان، وخاصة عند حديثه عن فلسطين ومصر وبغداد، وكأن التاريخ ينسي الحاضر، أو هو البديل عما يحدث، وما هذا إلا بسبب ما يستشعره من آلام وهموم وأحزان صارت صبغة الحاضر وإحدى سماته. ولهذا لا تكون السلوى إلا الجمع بين التوظيف الجغرافي للمكان والتوظيف التاريخي، وبهذا يعطي الشاعر امتدادا لحاضر المكان الضيق الذي يحاصره العدوان، وتقلصه الظروف السياسية، من خلال إخراج المكان إلى الضوء، واستغلال سعة الماضي لتعويض ضيق الحاضر. يقول الشاعر سعد درويش:

ِغــــدَادُ ســـمُ ِ ٰهَـــمِ إِ ذا نَطَقــــتُ ... دُ ُوفَـــه اهتَـــِّ ِلأَ غـــامِ ُبْتَـــِ ي

هَـلى ذَاكَ أَ نّـكِ أَنــتِ الحُـمَ فِـي زمَـنٍ ... هَـوَ ت كَ اكِبَـه فِـي وَ هـدَةِ العَـلو ُ "

أَم أَ نّكِ الحُـبّ والأَ حقَـادُ قَـد ضَـرَ بت ... غِشَلو َة فَــوقَ أَسـطَعِ وأَبصَـلو ِ ؟

أَم أَ نّــكِ القَلعَـــةَ الشّــمَاءِ رَ اسِـــخَةٌ ... وَ قَــد تَرَامَـــى عَلَيهَــا أَلــفُ إِ عْصَـلو ِ

بِغــدَانُجِ دُتُّـك مِـن مِصــرَ بِأَ زهَلو ِ ي ... فَــإِن قَبِلــتِ فَقَــدأ َعلَيــتِ مِقــلَرِ ي

إِن كَانَ فِي مِصرَ عُودِي قَدزَ كَوَ سمَ ا ... فَقَــد تَفَتّــــحَ فِـي بِغــدَادِ نَـوارِ ي

يَـلبنَ الفُـرَ اتوَ يـابنَ النّيـلمَ اؤكُمـا ... صَـلفٍ فَلاَ تَتْرُكَـاه نَهْـب أَكْــلارِ

صُونَه بِالعُ ْ َ ةِ وتُقْـوَى لاَ تَدَعَا ... ئمّ الأَفَاعِي يُخَالِطُ نَبْ َء الجَـ ِ ي [1]

أما إذا انتقلنا إلى شاعرنا أحمد الشارف موضوع هذه الدراسة، فسنجد له هو الآخر استدعاءاته الخاصة للمكان، لتكون إحدى وسائله في التعبير عن بعض المواقف من القضايا التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية، ولهذا نجده يستدعي بعض الأماكن، التي ارتبطت بصفحات من مجد هذه الأمة، وتاريخها المشرف الذي صار محل استدعاء الشعراء كلما ضاق بهم الحاضر، وشعروا بصور انكساره وانهزامه وتخاذله، أمام عدوهم الذي ما فتئ يكيد الدسائس لهذه الأمة، ويتآمر على أراضيها وخيراتها ومقدساتها، لا لشيء إلا لإحساسه بضعفها وقلة حيلتها، بعدما دب بينها الخلاف والشقاق، وتخلت عن تمسكها بأمر ربها ونواهيه، وهو ما به انتصرت وحققت ما حققته من أمجاد وانتصارات عبر التاريخ، ولهذا نجد الشاعر أحمد الشارف في إحدى قصائده:

اللـــهُ يَعلَـــمُ نكُـــم لَـــن تَجْحَـــدُوا ... بِسِـــوَ ى أَوَامِـــــرِهِ وَ مَنْهيَاتُـــــه

واللـــهُ يَعلَـــمٌ أنّكُـــم لَـــن تَهضُـــوا ... لِتَدلو ُ كَ المَطلُــوبِ قَبْـلَ فَوَ اتِــهِ

حَــتّـــى تَلّبَّـــدَ بِـــالحَوادِثِ جَـــوّكُم ... وَ غَـدَا الشّـقَاقُ يَـوُرُ فِـي حلَقَاتِـه

انتَـــلبكُم خَطَـــبُ مَفْـــ ِ يَــنكُم ... َسَــائِلُ القَـ ِ ـق ِ ـنَ زَعَاتِـه

[1] وثائق ونصوص: بغداد وطن الشعر لسعد درويش، جمع عبد الجبار داود البصري (ط1 1988م) دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ص 59، 60.

وَمِنَ الحَوَادِثِ مَا يَكُونُ مُنَبِّهًا ... مِنْ حَدِّهِ التَّنْبِيهُ مِنْ غَفَوَاتِهِ
وَإِذَا الفَتَى فَقَدَ الشُّعُورَ فَحَظُّهُ ... وَضَدَ بِهِ الإِغْرَاقُ فِي شَهَوَاتِهِ
عَرَبُ الجَزِيرَةِ قَدْ تَضَاءَلَ مَجْدُكُم ... وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ مِنْ مَنْ نَكَبَاتِهِ
سَيَمُرُّ جِيلٌ إِثْرَ جِيلٍ بَعْدَكُم ... وَيَكُونُ مِنْ حُفَّاظِهِ وَرُوَاتِهِ
وَالمَرْءُ لَيْسَ بِتَارِكٍ أَثَرًا سِوَى ... مَا سَجَّلَ التَّارِيخُ مِنْ حَسَنَاتِهِ[1]

ومن خلال الأبيات السابقة نرى استدعاء الشاعر لعرب الجزيرة، لما يمثله هذا المكان في تاريخ الأمة العربية والإسلامية، من دلالات دينية وقومية وتاريخية تعد هي عماد هذه الأمة، وأسس بقائها واستمرارها، ولهذا كان في العودة إلى هذا المكان والإشارة إليه، هي عودة للأصالة والعراقة، التي يجب التمسك بها والعمل على إحياء مقوماتها، لتستعيد الأمة كرامتها وعزتها وسيادتها.

وفي موضع آخر وفي سياق استدعاء الشاعر أحمد الشارف لبعض الأماكن التاريخية والتراثية، نراه يستدعي بعض الأماكن الدينية التي يرتبط بها المسلم وجدانيا ونفسيا أيما ارتباط، لما تمثله له من قدسية دينية، لها مكانتها العالية والرفيعة في قلبه، وما يحيط بها أيضا من هالات إيمانية وروحية، تجعل المسلم أينما حل دائم الشوق والحنين لتلك البقع المباركة، وما يسودها من أجواء ربانية، يكون فيها أكثر قربا من خالقه، وأكثر طمأنينة وأنسا وفرحا وبهجة. وهنا نجد الشاعر أحمد الشارف يعبر عن عمق أشواقه لتلك الأماكن فيقول:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي حَدِيثَ غَرَامِي ... وَلَطِيفَ شَوْقِي وَفَرْطَ هُيَامِي
لِيُلْقِيَ عَلَى الحَرَمَيْنِ خَيْرَ تَحِيَّةٍ ... وَيَتِهُ لَا شَاوِسُ الأَقْوَامُ
وَيَمُرُّ مُنْعَرِجًا وَمُنْعَطِفًا عَلَى ... ذَاكَ المَقَامُ وَفَوْقَ كُلِّ مَقَامُ
وَيَعُودُ بِالأَشْوَاقِ يَخْتَرِقُ الفَلَا ... لِبِلَادِ مِصْرَ أَوْ بِلَادِ الشَّامِ
وَيَحُثُّ مِنْهَا لِلعِرَاقِ تُرُوعَهُ ... وَيَبُثُّ فِي لَوَرِ السَّلَامِ سَلَامِي
لَوْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا الصَّلَاحَ جَوَابَهُمْ ... فَهُوَ الخَبِيرُ بِعِلَّتِي وَسَقَامِي[2]

وكما رأينا حالة الشوق والحنين التي يعبر عنها الشاعر في هذه الأبيات، بدءا من الحرمين الشريفين، ومقام المصطفى صالى الله عليه وسلم، وهما من أسمى البقاع وأشرفها، وأحبها لقلب المسلم، ثم يعرج الشاعر على أماكن أخرى، مثل مصر والشام والعراق، لما لها من دلالة تاريخية وتراثية في وجدانه، حيث عبق الماضي، وأريج صفحاته الحبلى بصور البطولات والانتصارات والأمجاد، التي كثيرا ما يحرص الشعراء على استدعائها، واستلهام معانيها ودلالاتها.

---

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 94.
(2) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 100.

وكما يستدعي الشاعر أحمد الشارف، بعض الأماكن لمكانتها التاريخية والتراثية، فإنه يقوم إلى جانب هذا الغرض، باستدعاءات أخرى تقوم على الدفاع عن سكان هذه الأماكن، والإشادة بأصالتهم ونبل أخلاقهم وكرم طباعهم في وجه من يروج لصور تخالف هذه الحقيقة، وهذا ما قام به الشاعر عندما انبرى للدفاع عن المغرب وعن أهلها حيث يقول:

يُقَالُ المَغَارِبُ مُسْوَدَّةٌ   وَمَا قِيلَ لَمْ يَكُ بِالأَصْوَبُ
فَكَمْ مِنْ غَرِيبٍ تَحَلَّى بِهَا   أَتَانَا مِنَ البَلَدِ الطَّيِّبِ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ مِنْ حَالِهِ   بِأَنَّ ذَوِي الفَضْلِ فِي المَغْرِبِ
وَكَمْ فِي بَنِي الغَرْبِ مِنْ فَاضِلٍ   حَرِيصٌ عَلَى الدِّينِ وَالمَذْهَبِ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَرَى الشَّمْسَ فِي   سِوَى جَانِبِ الغَرْبِ لَمْ تَغْرُبِ
كِرَامٌ مَدَى الدَّهْرِ أَخْلاَقُهُمْ   تَدُورُ عَلَى صِحَّةِ المَشْرَبِ
وَإِنَّ المَكَارِمَ قَدْ أَصْبَحَتْ   لِغَيْرِ بَنِي الغَرْبِ لَمْ تُنْسَبِ
إِذَا قُلْتَ أَنَّهُمْ قَدْ عَنَوْا   بِطَائِفَةِ الحَقِّ لَمْ أَكْذِبِ(1)

هكذا يرسم الشاعر أحمد الشارف صورة مشرقة لأهل المغرب، تنم عن حبه لهم ولتلك البلاد، التي لا يرى فيها إلا موطنا من مواطن الخير والصلاح الذي عرف عنها وعن أهلها، عبر العصور المختلفة، وهو لا يقول هذا الكلام كذبا ولا افتراء ولا مداهنة، وإنما عن حقيقة لا مسها عبر معاشرته لأهل تلك البلاد وارتباطه ببعضهم عبر صداقات عقدها، أعطته الصورة الحقيقية لأهل المغرب وما عرف عنهم، والتي ألزمته بدورها الدفاع عنهم، وتنقية كل ما يشوبهم.

كما يقف الشاعر أحمد الشارف على بعض الحوادث، ليستدعي من خلالها صورة من صور المراحل التاريخية، التي مرت بها الأمة العربية والإسلامية في بعض البلدان، و ما نجم عنها من حالات التردي لأوضاع هذه الأمة، وهو حين يستدعي هذه البلدان فإنما يستدعي تاريخها وماضيها التليد، في محاولة لبعث روح الأمل، واستنهاض الهمم وحشد الطاقات، في وجه عدو هذه الأمة، الذي لم يعدم الوسائل لتفريقها، والنيل من دينها وتاريخها وحضارتها، واحتلال أراضيها. وهذا ما أراد الشاعر التنبيه إليه والتحذير منه، ولهذا نجده يقول في بعض أشعاره:

يَا أُمَّةَ الحَرَمَيْنِ هَلْ مِنْ نَهْضَةٍ   وَحَمِيَّةٍ تَحْمِي الحِمَى وَحُمَاتِهِ
قُلْتُمْ كَمَا قَالُوا زَمَانُ تَمَدُّنٍ   وَالقَوْلُ مُنْصَرِفٌ إِلَى غَايَاتِهِ
وَالدِّينُ دِينُ الحَقِّ لَيْسَ لأَهْلِهِ   إِلاَّ التَّدَرُّجُ فِي شُؤُونِ حَيَاتِهِ
أَجَهِلْتُمُوهُ وَأَظُنُّكُمْ لَمْ تَجْهَلُوا   مَاذَا جَنَى الإِسْلاَمُ مِنْ ثَمَرَاتِهِ
وَمِنَ الذِي بِالرَّغْمِ أَصْبَحَ بَاسِطًا   يَدَهُ الأَثِيمَةَ فَوْقَ مُمْتَلَكَاتِهِ
وَمَنِ الذِي فِي مِصْرَ أَصْبَحَ لاَعِبًا   لَعِبَ الكَمِيِّ بِسَيْفِهِ وَقَنَاتِهِ
وَمَنِ الذِي انْتَجَعَ العِرَاقَ لِيَسْتَقِي   مِنْ مَاءِ دِجْلَتِهِ وَمَاءِ فُرَاتِهِ
وَمَنِ الذِي أَوْدَى بِإِفْرِيقِيَّةٍ   وَالمَغْرِبِ الأَقْصَى بِمُضْطَهَدَاتِهِ(2)

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 131
(2) أحمد الشارف دراسة وديوان , ص 131 .

بهذا الخوف والخشية على هذه الأمة، وعلى حاضرها ومستقبلها، خاطب الشاعر أهل الحرمين الشريفين، وأراد من هذا الخطاب، ومن استدعائه لهذه الأماكن المقدسة وأهلها، تذكير الأمة بماضيها وتاريخها وتراثها العظيم، الذي بات محل تهديد من قبل الدول الاستعمارية، التي ما فتئت تعمل جاهدة على بسط نفوذها وسيطرتها على بعض الدول العربية، مثل مصر والعراق وشمال أفريقيا، التي رزحت تحت نير الاستعمار سنين وسنين، وما هذا كما يقول الشاعر إلا سبب ابتعاد هذه الأمة عن دينها القويم، ومحاولة تقليد هذه الدول الاستعمارية، ومحاكاتها في بعض صور حضارتها الزائفة، وهو ما يراه السبب الأول والأخير في خذلان هذه الأمة وضعفها وتأخرها، ولهذا لابد من تصحيح لهذا المسار، والعودة إلى ما كان سببا في عزتها ومجدها وكرامتها، وهو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهما طريق الخلاص وطريق النجاة لهذه الأمة.